علماء العرب

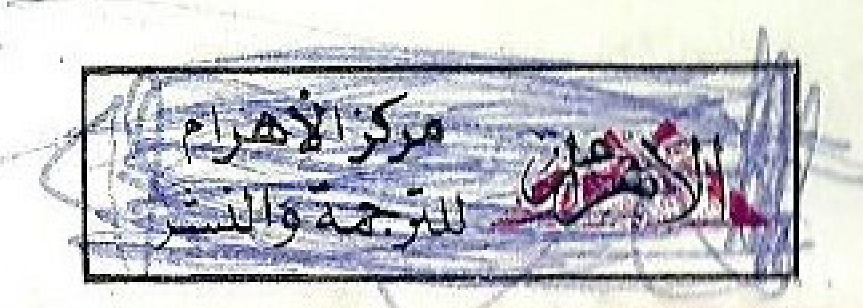


ابن رشد
آخر الفلاسفة



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب



علماء
العرب
(١٢)

ابن رشد
آخر الفلاسفة



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الطبعـة الأولـى
١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان



الصديقان

كانت قد مّرت ثلاثُ سَنوات ، حينَ قدّم قاضِى القُضاةِ « أبو القاسم أحمد » ولدَه : « أبا الوليد محمد » إلى أصحابه ، ومعَه صديقُه الفتى « ابن زُهر » . كانوا جالسين فى قاعةِ الأضيافِ الكبرى ، المثمنةِ الأضلاع ، المُحاطةِ بالعُقود ، والزخارِف المورّقة .

وقال لهم أبو القاسم مُشيِر إلى ولدِه ، وصديقِه :

— هذانِ قد عَرفا علومَ الدين على يدَىّ . حفظا القرآنَ الكريم ، وأحاديثَ « الموطَّأ » للإمامِ مالِك ، ودرسَا التفسيرَ ، والحديثَ والفِقه ، وهما يرغبانِ فى درس عِلم الكلام على مذهبِ أهلِ السُّنة من الأشاعِرة ، وحضور مجالِسكم ، وسماعِ محاوراتِكم .

ورحّب الأصدقاءُ بالفتيَيْن ، وكانَا فى عُمريْن مُتقاربيْن .

ومنذُ ذِلك الحين ، وقد بلَغ « أبو الوليد » من العمر خمسَ عشرةَ سنة ، انقطعَ الصديقانِ إلى هؤلاءِ الصحب ، وكلّهم أساتذةٌ كِبار فى قُرطبة ، يجلسان إليهم حيثما كانوُا ، أو كانَ أحدُهم ، فى حلْقاتِ الدرسِ بمسجدِ قرطبةَ الجامِع الكبير ، وفى مجالسِ الفكرِ كلّما انعقدتْ فى دارٍ أو قصرْ . وكان الجدلُ يدورُ فى علمِ الكلام ، حول مذهَبٍ من مذاهبِ أهلِ السنة ، هو مذهبُ الأشاعِرة .

وسَرعان ماتكشّفتِ الميولُ الحقِيقية لكلٍّ من الصديقين . تاقَ أبو الوليد ، وابن زُهر ، لدراسةِ الفلسَفةِ والطب . فقصرا لقاءاتهما على اثنين ، هما : « ابنُ طفيل » الفيلسوف ، و« أبو جعفر هارونَ » الطبيب ، وكانتْ دِراسةُ هذينِ

العِلميْن معاً فى هذا الزمان أمرًا محتوما ، فى المشرِق العربى ، والمغرِب العربى . وفى طلبِهما كان يفدُ من أرجاءِ أوربا ، على الأندلُس ، علماءً وقساوسة ، ويستقرّ بهم المقام فى قُرطبة بِضعَ سِنين .

خير بلاد الأرض

كانتْ قُرطبةُ أكثر مَدُنِ أوربا سُكانا ، وأغْناها مالاً ، وأعْلاهَا ثقافةً ، فى القرنِ الميلادِىّ الثانى عشر . وكانتْ مدينةً مترامِيةَ الأطَراف ، تحيطُ بها ضواحٍ جميلةٌ ، وأراضٍ خصبةٌ ، ويشقّها نهرُ الوادِى الكبير ، تعلُوه قنطرةٌ شهيرة ، وتتناثرُ فى أرجائِها حدائقُ غنّاء ، وقُصورٌ فخمة ، تُرَى فيها تماثيلَ الحيوانَاتِ والطيورِ ، وتلتمع بِها ، فى ضياء الشمس ، مياهُ النوافِير النجْمِيّةِ المثمنة ، ومبانٍ دينيةٌ رائعةٌ ، يتجلّى فيها امتزاجُ الطرُز المعمارية : العربيّة ، واليونانية ، والرومانية ، والقوطِيّة فى اتساق .

وكانت قُرطبةُ ماتزالُ عاصِمةً للأندلُسِ سياسةً وحضارةً ، واقتصاداً وثقافةً ، فى العصْرِ الأُمويّ ، ثم انهارتْ قُرطبةُ فى عهد

ملوكِ الطّوائِف قرابةَ مائةِ عَام ، لكن دولةَ المرابِطين المغربية ، أعادت إلى الأندلُس وحْدَتها ، وإلى قُرطبة مجدَها ، فصارتِ العاصمةُ الثانيةُ لدولةِ المرابِطين ، بعد عاصِمتِهم الأولى فى مُراكش . وارتفعتْ من جديدٍ هَيْبةُ قُرطبة ، وسطوتها ، وبأسها ، فى مواجهة إماراتِ الفِرنجة ، المترّبصة بالحكْمِ العربى وبالمسلمين فى الأندلُس ، تنتظِرُ فُرصَ الضعف ، وتنتهزها بالغاراتِ ، والمذابحِ ، والحروب .

وفى قرطبة ، كانتْ تتعايشُ ثلاثُ دِياناتٍ كبرى ، جنباً إلى جنب ، فى تسامحٍ دينى سائدٍ بينَ الرعَايا ، لايكاد يُخْرقُ ويمزّقُ إلا فى أوْقاتِ المِحنِ والشّدائِدِ ، حين ينزلق بعضُ المستعرِبين من المسيحيّين واليهودِ لتأييدِ غُزاة الفِرنجة . وكانت تَتفاعُل ثلاثُ ثقافاتٍ : ثقافةُ اليونانِ والرّومان ، وثقافةُ العَرَبِ المسْلمين ،وثقافةُ العِبرانييّن ، لكنّ هِذه الثقافةَ العِبْرانية كانتْ حبيسة المعابدِ اليهودِية ، لايُشارك أحبارَها أحدٌ فى معرِفتها ، سوَى الملوكِ والنّبلاءِ والعظماءِ ، والعلماءِ والأدباءِ والفنانين ، والمترجمينَ من العربيةِ إلى العبْرية واللاّتِينِيّة ، ومنَ اليونانيةِ والعِبْرية إلى العربية .

وتشرّبت رُوحُ أبوُ الوليد ثمارَ هذا التعايُش ، والتفاعُل ،

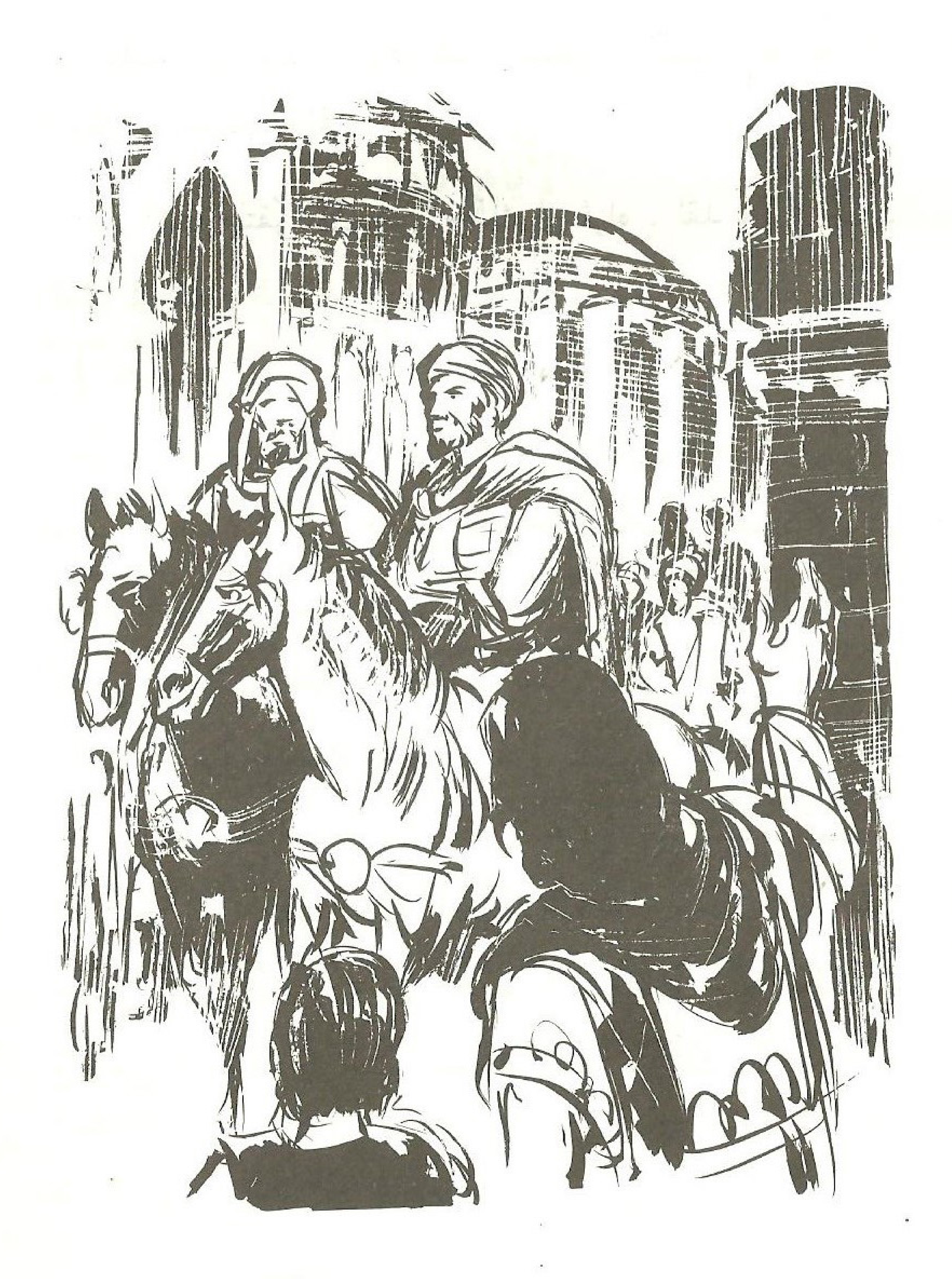
والتسامح ، فى الأسواقِ والمجالِس ، والمكتباتِ والمؤلّفات ، فاكتسَبَ احترامًا للعَقل ، وغِنًى فى المعرِفَة ، ورحابةَ صدرٍ فى تفّهم أختلاف الآراء ، وتعارُضِ وَجْهاتِ النظرِ والأفكْار ، وأحبّ قُرطبة .

قال أبو الوليد لأبيه يوما ، معبراً عن حبّه لقُرطبة :

ـــ قرطبة خير بلاد الأرض ، وأهلها أذكى الناس . أحبّ فيها مايسرّ ، ومايُغضِب . ولا أرجُو أنْ أعيشَ فى مدينَةٍ سواها ، أو أموتَ بعيداً عنها ، أو أدفَنَ فى غيرِ ثَراها .

على صهوة جواد

بلغَ أبو الوليدِ من العُمرِ عشرينَ سنة ، وتقدّم لنيلِ الإجازَاتِ العلمِيّة من أساتذتهِ فى علومِ التفسيرِ ، والحديثِ ، والفقِه ، والكلامِ ، والمنطق ، والفلسفة ، والطبّ ، فنالها جميعا فى حشدٍ حافل ، من العلماء والطلاّب ، والقضاةِ والفُقهاءِ ، وعُشاق العِلم ، فى المسجِد الجامعِ الكبيرِ بقُرطبة .



وعادَ إلى البيتِ عالمًا صغيرا ، ذا لِحيَةٍ خفيفة ، على صِهْوة جَوادٍ ، برفقَةِ أبيه . وأقيمتْ وليمةٌ حافِلة للعلماءِ والطلاّب فى بستانِ القصر ، ومُدت الموائدُ للفقراءِ خارجَ القصر ، تغطّيها المفارِش البيضاء ، والملاعِقُ والشوكُ والسكاكين ، التى ابتدَعها فيما مضَى الموسيقارُ زِرْياب .

وحين انفضّ السّامر ، وخَلا أبو القاسم بولدِه ، فى قاعةِ الأضْياف ، قال له :

ــ أىَّ عملٍ تحبّ أن تلىَ أمورَه فى قُرطبة ؟

فقال أبو الوليد :

ــ لا أرضى لنفسِى بغيرِ القضاءِ عملاً ، ووسيلةً للعيْش ، لأكونَ مثلَ جدى ، ومثلَك ياأبى ، لكنّ سنِّى مايزالُ غضًا ، والقاضِى ينبَغى أن تكونَ له من العُمرِ هيبةٌ أمامَ النّاس ، ومازِلتُ أحبُّ طلبَ العلم ، والمزيدَ من معارِفِ الطبّ والفلسفة ، والفلَك والحيوانِ ، فقد صِرت لها محبًّا ، بل عاشِقاً ، فأمْهِلْنى بِضعَ سنين .

وأعجَبتْ أبو القاسم رجاحَةَ عقْلِ ولدِه ، وعدم تعجُّله

فى طلَبِ المناصِب ، وطريقتُه المنطقيةُ المنّظمةُ الهادئةُ فى التفكِير ، فعانقَه قائِلا :

ــ الآنَ ستَقرّ بكَ عينُ جدّك فى ثَراه . لقد ودّع جُدك الدنْيا فى العامِ الذى وُلِدْتَ أنتَ فيهِ ، فغمرَنى الحزنُ عليه ، ولم يعوِّضنى عنه سوَى أنكَ وُلِدت إثر وَفاتِه بشهُور ، وسوَى أن سلطان المرابِطين « ابن تاشفين » ، رفعَنى من قاضِى مدينة ، لأكونَ قاضىَ الجماعة (قاضِىَ القُضاة) ، فى مكانِ جدّك . فاصنعَ يابُنَىّ ماتُحِبّ . وإنى لأرجُو أن تكونَ أفضَلَ إخوتك عقلاً وعِلما . لكن دعْنى أفرح بِك أنَا وأمّك . وتزوّج بفتاة تُحِبّها ، فتاةٍ نالتْ من التعليمِ مانالتْه إخوتُك من البَنات ، فلا تكُونُ غريبةً بينَ نِساءِ البيْت ، ولاتشعُرُ أنت معَها بغربةِ العقْلِ والرّوح ، وتجدُ لديْها خيرَ صدِيقٍ فى الحيَاة ، وخيرَ تفهُّم لانشغالِك عنْها بالعِلم ، وتغرِسَ فى أولادِكما حُبّ العِلم ، مثلَها ومثلَك .

الأيام دول

فى ذِلك العامِ نفسِه ، سقَطَ حُكْمُ المرابطينَ فى المغرِب ، على أيدِى رجالِ دوْلةٍ مغرِبيةٍ جديدة ، هى دوْلةُ الموحِّدين ، فللدّولِ شيخوخَتُها مِثلما للأفرادِ ، وانتقلتْ تبعيةُ الأندلُسِ للدولةِ الجديدَة ، وكانت ، وهى المهدّدة أبداً بغزوِ الفِرنجة ، بحاجةٍ إلى دِماء دولةٍ فتيّةٍ وليدة . وكانَ مؤسِّسُ هذه الدولة تلميذًا للإمامِ الغزالي المتصوّف ، ومدافعاً عن مذهبِ الأشاعرةِ بينَ مذاهِبِ أهْلِ السّنة .

ولم يؤثّر هذاَ التغيُّر فى حياةِ أحدٍ من بِنى رُشد . ظلّ أبو القاسم فى مكانِه قاضِياً للجماعة ، وظلّ ابنهُ أبُو الوليد يواصِلُ طلبَه للعِلم ، وللطب ، فى كتبِ ابن ماجَه ، وابنِ جُبَيْرُول الفلسفية ، وكتبِ الزهراوِىّ الطبيبِ الجراح ، و« الحاوى » للرازى ، فى الطبّ ، ويُعالج الفقراءِ بلاَ أجْر ، وصارَ له تلاميذٌ ، يدرسُون على يديْه الفلسفةَ والطبّ .

دعوة للقاء السلطان



وتَولَّى منصِب السّلطان « أبو يعقوب يُوسَف » . واختار لهُ وزيراً فيلسُوفاً ، وطبيبا خاصّا : « ابنَ طفيل » أستاذ أبَا الوليد . وزارَ ابنُ طفيل صديقَه أبا القاسم فى قُرطبة ، فأهدى لتلميذه أبِي الوليد نُسخةً من قِصّتِه الفلسفيةِ « حىّ بن يقظان » . وسعِد أبُو الوليد بقراءةِ القِصّة ، وناقَش ابنَ طُفيْل فى مغزاها الفلسفِىّ ، الذى يَرى فيه ابنَ طُفيل ، أنّ الإنسانَ يمكِنُ أن يهتدِىَ إلى خالِقِ للكون ، لو قُدّر له أن يعيشَ وحيداً عن بنِى جنسِه ، ولو لم يبلُغْه أىُّ خبرٍ عن الوحْيِ والرسُل .

وأعجب ابن طفيل ، بمعارِف أبِى الوليد الواسِعةِ بآراءِ الفلاسِفةِ الإغريق ، وفلاسِفةِ الإسلامِ المشرقِيّين ، وبنقدِه الجيّدِ لأولئِك وهؤلاء ، وأغراه بالسّفرِ معَه إلى مراكِش ليقدّمه إلى السلطان أبِى يعقوب ، ويقدّم له المشورَة فى إنشاء عَددٍ من المدارِس الجديدةِ والحديثَة ، بالمغرِب والأندلس ، على أُسُسٍ جديدةٍ ، لإصلاحِ نُظُمِ التعليم .



وكان أبُو القاسم قد قامَ بتقديمِ مشورَة مماثلةٍ لإصلاح التعليم فى عهدِ دولةِ المرابِطين ، فسُرّ أبُو الوليد بدعوتِه للقيامِ بدورٍ مماثِلٍ لدورِ أبيه ، فى دوْلةِ الموحدين ، وقبْلَ رحيله عن قُرطبة إلى مراكش ، كان قد حَمل معه آراء كثيرة جديدةً لإصْلاحِ التعليمِ ، ونظُمِ التعليمِ وطرائِقه ، وفى مقدمِتها آراءُ أبِيه .

تعليم المرأة

كان قصرُ السلطان فى مراكش مثَل قصورِ الأندلس ، فالعِمارةُ هنَا وهنَاك واحدة ، تميزُها أبداً القاعَاتُ والنوافير المثمنةُ الأضلاع ، والعقُود والمقَرْنصَات الزُّخرفية المورَّقة . وكان الوقتُ صيفاً حين جلَس أبو الوليد فى مجلِس السلطان مع صفوَةٍ من علماءِ وأدباءِ وشعراءِ المغربِ والأندلسِ ، وأنِست نفسُه لهَذا السلطان المحبّ للعلم وأهلِه ، وحدّث نفسَه بأنّه هكذا ينبغى أن يكونَ الحاكمُ عالماً ، يجمَع حولَه العلماء ، ويتَّخِذ منهم الوزراءَ والمشِيرين .

وتحدّث أبُو الوليد ، مع من تحدث من الحاضرين ، فى قضيّةِ إصْلاحِ التعلِيم . وراقت للسُّلطان وَجهةُ نظرِ ابنِ رُشْد ، وتركيزِه ، وحُسْنُ فهمِهِ وعرضِه ، وقدرتِه على إقامةِ الجسورِ بين الآراءِ المتعارضة ، ورفْعِ التناقُضِ بينِ الأفكارِ المتباينَة ، فقال له :

— مارأيُك فى تعليمِ المرأةِ ياأبا الوليد ؟ وهل إذا تعلّمت

المرأة ، ونالتْ قدراً كافيا من التعليمِ ، تكونُ صالحةً لتولّى المنَاصِب ؟

فقال ابنُ رشد ، وهو يدقّق فى اختيارِ كلماتِه ، قدْرَ المستطَاع :

— لفيلسُوف اليونانِ « أفلاطون » رأى فى هذا الموضُوع فى كتابِه « الجمهورية » .

فقال له السّلطان باسماً ، وقد أدرَك حَرجَ موقِفَ أبِى الوليد ، فى إبداءِ رأيِه الخاصّ :

— نريدُ رأيَك أنتَ ياأبا الوليد ، لا رأىَ أفلاطون .

فقال ابنُ رُشد :

— رأيِى أنّ النساءَ مادُمن من أفرَادِ الجنسِ البشرِى ، فهن يشترِكْنَ بالضرورةِ فى تحقيقِ غايَةِ الإنسان ، وهى تعميرُ الأرض ، والارتقاءُ بالحياةِ البشرية . ولن تختِلفَ النسّاءُ عن الرجَالِ فى تحقِيقِ هذِه الغاية ، إلا من حيثُ الدرجةِ الأكثر أو الأقل ، مثلَما تختلِفُ بين الرّجال . وإذا توجّهت الطبيعة

فى المرأة ، إلى نشاطِ الرجلِ ، فى المدينةِ الواحدِة ، فسوفَ تمارِسُ نفسَ النشاطِ الذى يمارِسُه الرجل .

حدثتْ همهمَة فى المجلس . فسارعَ ابن رشد بتوضيح وَجْهةِ نظرِه . قال :

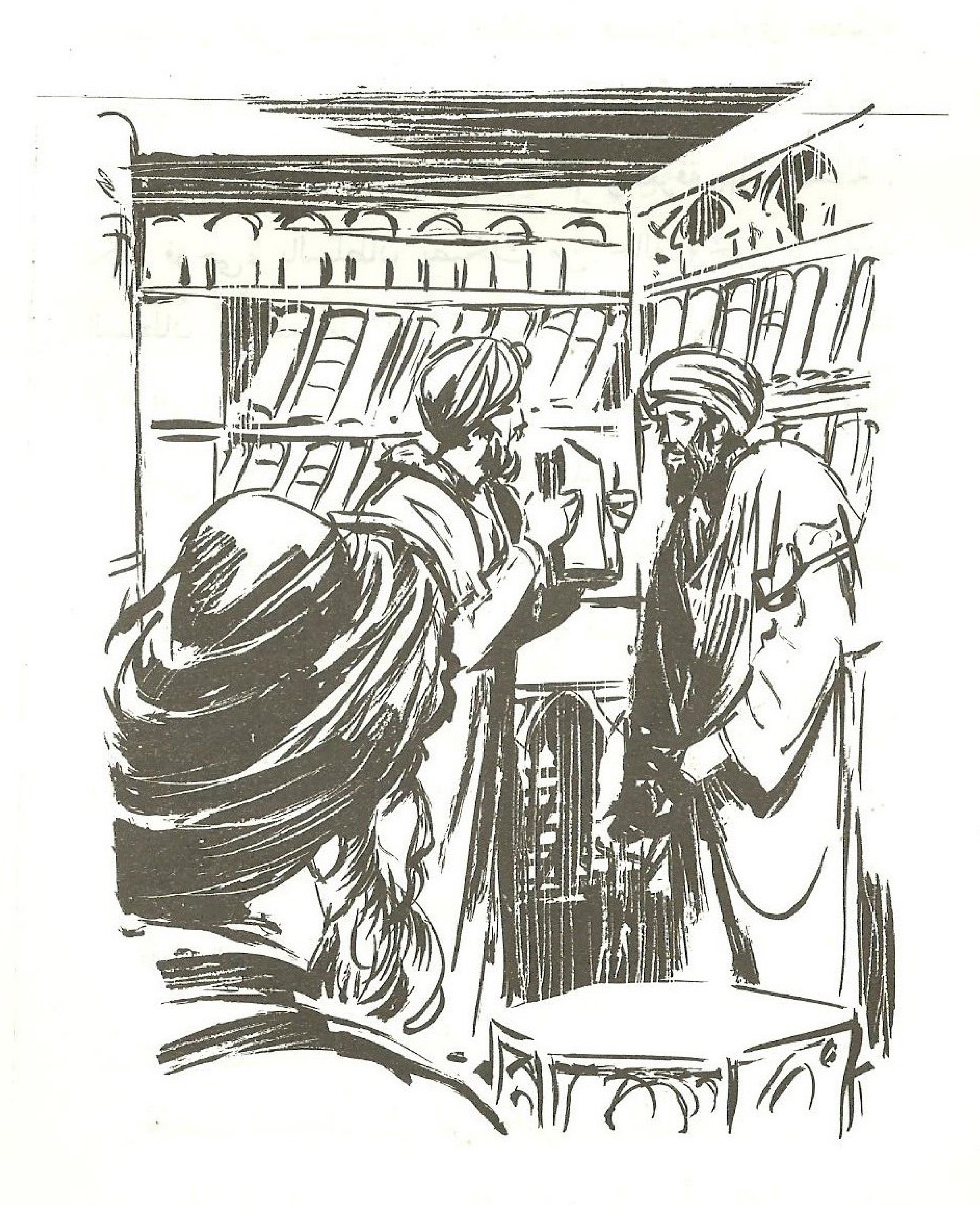
ـــ إن بعضَ النساء يتلقَّيْن تعليماً ممتازاً ، ويتمتعْن باستعدادٍ حميد ، فليسَ من المحال أن يكونَ من بينهِن فلاسِفة ، مثلما حدَث فى الاسكندريةِ واليونان ، وفقيهات مثلما حَدث فى دُولِ للإسلام ، وحُكّام وقُضاة مثلما يحدُث بينَ الرجال ، فى أىِّ مدينة . لكنّ كفاءَةَ النّسَاء فى مُدُنِ الأرضِ غير مَعروفَةٍ إلى الآن ، ولم يكتَشِفْها ويستثمِرْها أحد لِصالح المجتمعَ .

فهن يوضَعن فى خِدمةِ أزْواجهن ، ولغايةِ النسل ، ويوقفن فى البيُوتِ على إنجابِ الأطفالِ ، وتربيتِهم ، وإرْضاعِهم . وفى رأيِى أنّ النساء لم يُعدَدْن حتّى الآن لأىِّ من الفضائلِ الإنسانيةّ التى نحرصُ على أن نُعدّ لها الرجال . ولذلك فالنسَاء كثيراً مايُشبهن فى حياتِهن النبّاتات ، حتى صِرْن عبئاً على الرجال ، وأحدَ أسبابِ الفقرِ فى مُدُن الأرْضِ ، لأنّهن قُدْرات

عملٍ معطلّة ، خاصةً وأن عَددهن ، فى بعضِ المدن المحارِبة ، ضِعْف عددِ الرّجال ، ولايفهمْن بحكمِ تربيتِهنّ من الأعمالِ اللازِمة فى المُدن ، سوى فنّ الغَزْل والنسْج . وهُنّ لايَقُمْن بِهما ، فى مُعظِمِ الأحْوال ، إلا لتعويضِ حاجتِهن للمال ، وقلّةِ قُدرتِهن علَى الإنفاق .

وساد الصمتُ والوجُوم فى المجلِس ، لجُرأةِ أبِى الوليد فى الحدِيث عن حالِ المرأة فى الدّنيا ، وتسويتِهِ لها بالرّجال ، مع أنّ أكثَر الحاضِرين ، كان حريصاً على تعلِيمِ بناتِه ، ولو فِى البيوت ، وحريصاً على تأمينهن اقتصادِيّا ، ويتمنّى أن تكون بناتُه قادِراَتٌ علَى العَملِ مِثل الرَجال فى مدائِنِ الإسْلام ، ولكنّه يخشَى ماحوْلَه من الأعْرافِ العامّة ، فى عالَمٍ يسُود فِيه الرجَال . وأدرَك السلطانُ حَرَجَ الموقِف ، وخَشِىَ تطورَ الجدَلِ بين الحاضِرين ، وبينهم فقهاءُ غَزاليّون وأشاعِرة ، فقال :

ـــ آراءٌ ومُنًى ياأبَا الوليد . والإسلامُ لايحُول بيَن المرأةِ وماتقوله . فدعْنا لانسبِق زمانَنا ، ولنأمل أن تتطَور المجتمعاتُ وتتغير أحوالُ الناس .



السلطان والعالم

انفضّ المجلس ، وخَلاَ السلطان بابنِ طفيل ، وأبِى الوليد ، فصحِبهما معَه إلى مكتبتِه العامرةِ بالكتب فى كل فنٍّ وعلم ، من علومِ الدّنيا والدّين ، فقد أخذتْ تهبُّ على الحديقة ، مع انتصافِ الليل ، نسْماتٌ بارِدة .

ورمَق السلطانُ أبَا الوليد ، وقال لَهُ متودِّدا :

ــ قرأتُ موسوعتَى جدّك الرائعتيْن فى الفقه ، وأرجُو أن تكونَ مثلَه يوماً ، قاضِيا للجماعَةِ ، بعد عمرٍ طويلٍ لأبِيك .

وحدّث ابنُ طفيلٍ السلطانَ عن العُلُومِ التى درسَها أبُو الوليد فى قُرْطُبة ، وتبحّر فيها ، وأن بيْن هذِه العلوم علمْين يُحبّهما ، مثلما يحبّهما السلطان ، هُما : الفلسفةُ والطب .

وومضَت عينَا السّلطانِ بإعجاب ، وقالَ لأبى الوليد :

ــ خبّرنى إذنْ عن رأىِ الفلاسفةِ فى الموجودات : أقديمةٌ هى أمْ حادِثة ؟ وفزِع أبُو الوليد ، وخشَى أنْ يُبدِىَ آراءَ الفلاسِفَةِ ، أو آراءه فى هذِه القضِيةّ العقليّة التجريدِيّة

الشائكة ، التى ينقسِمُ فيها الفلاسفةُ قسمين ، وفى حضْرة سلطانٍ مُوحِّدى ، مالِكّى المذهب ، أشعرىِّ الجدل ، فأخذَ يتهرّب من الاجابةِ ، بإظهارِ قِلّة العلمِ والمعرفةِ بهذِه المسْألة .

لكنه فوجىءَ بالسّلطان يضحَك من حالِه وخوْفِه ، وأخَذ السلطانُ يُجيبُ على السّؤال بنفسِه ، ويذكُر آراءَ فلاسِفةِ الإغريق ، والمسلِمين ، واحداً واحِداً ، واحتجاج فلاسَفةِ المسلمينِ وبراهينهم . فقال أبو الوليد :

ـــ لا أظنّ أن أحداً من المشتغِلين بالفلسفة ، المتفرّغين لها ، لديْه غزارةٌ فى المعرفة ، مثلَما لديك .

وباسَط السلطانُ أبَا الوليد ، فتكلّم بما يعرِفُه وأفَاض ، وسُرَّ السُّلطانُ بما سمِعه منه ، فسأله :

ـــ كم عُمرك الآن ؟

فقال أبو الوليد :

ـــ تسعٌ وعِشروُن سنة .

فالتفتَ السلطانُ إلى ابنِ طفيل ، وقالَ له :

ـــ إذا صدَق حْدسِى ، فلسَوف يكونُ أبو الوليد ، رابعَ

فلاسِفَةِ المسلمينَ العِظام ، بعدَ : الكِندى ، والفارَابى ، وابنِ سينا ، ومن حظّ المغرِب والأندلُس ، أن يكونَ فيها عقلٌ منظم ، ونَفّاذٌ لجوهرِ الأمور ، مثلَ عقلِ أبي الوليد .

وأطرق أبو الوليد خجِلاً من الثّناءِ عليه ، وعادَ السلطانُ يقولُ لأبى الوليد:

ـــ من الآن . سيكونُ لقبكُ عِندِى هو : ابنُ رُشد .

وضحِك ، وأضَاف :

ـــ ابنِ رُشد الجدُّ القاضِى الفقيه ، وابنُ رشدٍ الأبُ القاضِى الفقِيه ، وابنُ رشدٍ الحفيدُ الفيلسَوفُ الطّبيب .

قضية عمر

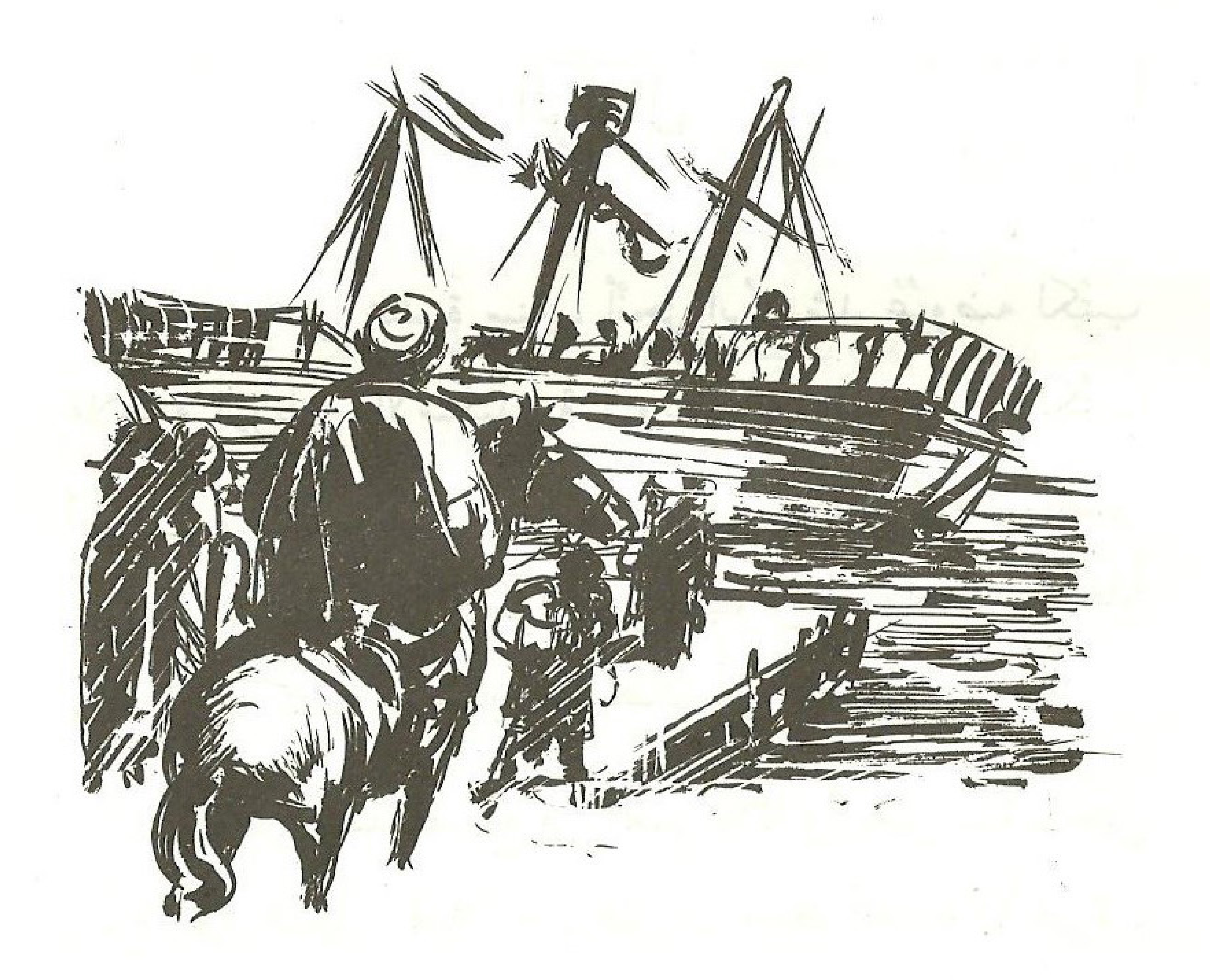
مكَث ابنُ رشدِ الحفيد فى مراكش ، بضْعة أسابيع ، ضيفْا مكرّما على السُّلطان ، يتوّدد إليهِ الوُزَراء ، ويقدرُه العلماء ، ويخشَى براهِينَه الفقهاء المتزمتون .

وزارَه أستاذُه « ابنِ طفيل » ، ذاتَ ليلة ، فى جناحهِ بقصرِ السّلطان ، قُبيلَ رحِيله ، وقال له :

— إنّ السّلطان يشكُو من قلَق عِباراتِ المترجمين لمؤلفاتِ فلاسِفةِ الاغرِيق ، وغموضِ شروحها . وهو يأمَل أن يقرّب أحدُ فهمَها لهُ وللناس ، بعبارَاتٍ واضِحةٍ ، وتراكيبَ مُبسّطة ، وظنّى أنّك أقدرُ منّى على تحقيقِ هذهِ الغاية ، فأنتَ جيّدُ الذّهْن ، صافِى القرِيحة ، واضح العبارة ، نُزوعُك قوىّ للفلسفة . وانشغالِى الدائم بصحبةِ السلطان ، يجول بينِي وبينَ هذهِ الغايةِ الجلِيلة .

وقبِل ابن رشد الحفيدَ المُهمة ، فقدْ كانَ عازِما على معايشةِ الفلسَفةِ الإغريقية والإسلامية من جدِيد ، بعقله هو ، عارضًا لها ، ومعلّقا عليها لاشارحا لها ، وبالبراهِين اليقِينية ، وليسَ بالبراهينِ الجدليّة مثل علماءِ الكلام ، ولا بالبراهِينِ الخطابية ، مثل الفقهاءِ والوعّاظ ، والكتّابِ والشعَراء .

وقَبْل عَودةِ ابنِ رُشد إلى قُرطبةَ الحبِيبة ، ودّعه السّلطان وابنُ طفيل فى الصّباح . وزّوده السلطانُ أبو يعقوب بمالٍ ،



ومنَحه خِلعًا (ثيابا) سُلطانِيّة ، وجوادً عربياً أصِيلا من جِيادِ« حضرَ موت » وأجرى عليه راتِبا سنوِيًّا لاينقطِع . وصحِبه الفرسانُ من مراكش إلى شاطِىء البحرِ ، فركِبَ سفينةً تعبرُ به مضيق طارقٍ مع جوادِه ، إلى مرسَى السفنِ بالجزيرةِ الخضراء ، فى جنوبِى الأندلس .

الزلزال

خلالَ خمس عشرةَ سنة ، أنْجزَ ابنُ رشد عُرُوضه لكتُب فلاسفَة اليونانِ والاسكندرية ، وتعليقاتِه عليها ، بل ولكتُبِ أطبائِهم وعلماءِ الفلك والحيَوانِ ، فى جوامعَ عُرِفت باسمِ جوامعِ أرسطو ، وأفلاطُون ، وجالِينوس .. وأهداها واحداً واحداً فى كُتبٍ ورسائِلَ للسلطانِ أبِى يعقُوب .

وكانَ ابن رُشد قد بَلغ من العمرِ ثلاثاً وأربعِينَ سنة ، حينَ ودَّع أبُوه الدّنيا ، قائلاً له ، قبل أن يلفِظ أنفاسِه الأخيرَة .

ـــ حانَ الوقتُ لتكونَ قاضِياً ياأبا الوليد ، وحانَ الوقتُ لتؤلّف كتَبك أنتَ ، وتحرّر نفسَك من أسْرِ قدمَاءِ الفلاسِفةِ اليونانيّين والمشرقيين . باركَ الله فيكَ يابُنى لأهلك ، وأُمّتك .

فى تِلك الليلةِ ، انقطَع أبُو الولِيد عن الدّرسِ والتأليف ، وكانتْ هذه الليلة هى الليلةُ الثانية فى حياتهِ التى ينقطِع فيها عن القراءةِ والكتابة ، بعدِ ليلةِ زفَافِه . إلى زوجتهِ الرقيقةِ الحبيبة .

وأوعزَ « ابنُ طفيل » للسلطانِ أبِى يعقوب ، فعيّن ابنَ رشدٍ قاضِيا لأشبيلية ، قبْلَ أن يمّر عام على وفَاةِ أبِيه . وغادرَ ابنُ رُشدٍ مع زوجتِه وبنِيه الخمسةِ قُرطبةَ إلى أشبِيلية . ولم يكدْ يستقّر به وبأهلِه المقَام فى أشبيلية ، حتى حدث زلزال كبير بقُرطبة ، كُتِبتْ لهُ ولأهلِه النجاةُ من أضرارِه ، وآثارِه المدمِّرة .

مدينة الفنون

طابت الحياةُ لابنِ رشدٍ فى اشبيلية ، علَى حنينِه الدائِم لقُرطبة ، أمِّ المدائن (عاصمةِ الدّنيا فى رأيِه . ووعى أن لكلِّ مدنيةٍ طابعَها الخَاصّ ، وروحَها الخلاق المتميزّ ، المتجسّد فى عمرانِها وأهلِها . فبقدْرِ ماكانتْ قُرطبة مدينةً للفلسفةِ والعُلوم ، وللكتُبِ وللثقافة ، كانتْ اشبيليةُ مدينةً للمسرّات الروحِيّة الأخرى ، مدينةً للفنّ وللفنانِين ، للأزياءِ والزّخارف ، والموسِيقَى والغِناء ، حتى أنّ أهلَ الأندلِس كانُوا يقولُون : « إذا ماتَ عالمِ باشبيلية بِيعتْ كتبهُ فى قُرطبة .

وإذا ماتَ مُغنٍّ بقُرطبة بيعتْ آلاتهُ الموسيقية فى اشبيلية » ، ضماناً لحُسْنِ التقديرِ لها ، والعدلِ فى ثمنِها ، هنَا أو هُناك .

وظلّ ابُن رشد يتنقّل فى فترةِ إقامته باشبيليةَ ، بينَها وبيَن مراكش ، يواصلُ عملَه الفلسفِىّ ليلَ نهار ، حتّى أتمّ إنجازَ مشرُوعه الفلسفِى الهائل ، وختمه بكتاب فى الفِقه ، هو : « المقدمات » ومع ذلك ، بداَ غير راضٍ عن نفسِه ، أمام نَفسِه ، بعدَ كل ما كتبه من كتب ، فقد كانَ يُبحِر فى بحارٍ أبحرَ فيها غيرُه من قبلِه ، على حدّة تعليقاتِه ، وحُسن حسمِه للآراء الخِلافية ، بالعقلِ الباحثِ عن وجهِ الحقّ وحدَه .

لقاء مع الشباب

ووفد عَليه فى اشبيلِيّة عددٌ من شبابِ قرطبة ، يستنيرُون بآرائِه فى قضَايا الفكرِ الفلسِفىّ والدينىّ ، والعِلمّى . وجلَس وإياهم فى حديقةِ بيتِ القاضِى باشبيلية ، فى ليلةِ ربيعيةٍ مقمرة ؛ تتأرجَحُ حولَهم فى الأشجار ، مع النّسائم ، القناديلُ

والمِشْكاوات ، وتفوحُ روائِحُ زهُور اشبيليةٍ عِطرة ، تُسْكِرُ الرءُوس ، وتريِح النُّفوس ، وثمّةَ أنغامُ لموشحٍ أندلسّى يُسمَع من بعِيد . وأخذ الشّبابُ يسألُون ابنَ رشد ، ويكتبُون فى الوقْتِ نفسِه أسئلتَهم ، وأجوِبَةَ ابنِ رشد .

وران عليهم الصمت ، وراحُوا يفكِّرون فيما يسمعونه من « ابن رشد » ويُدركُونه أنهمُ أمامَ عقْلٍ كبير . لايقِلّ تسامُح قلبِه ورحابته ، عن سَعَةِ عقِله . يحتِضن بفكرِه وَحْدةَ كبرى تندرجُ فيها كلّ عقُولِ البشر ، ومعارِفِ الأمم ، وثقافاتِ الشعوب .

توحيد القوانين

كان ابن رشد الحفيد قل بَلغ من العمرِ ثلاثاً وخمسين سنة ، حين أصدَرَ السّلطانُ أمرَه بتعيينه قاضِياً للجماعة ، فعادِ ابنُ رُشدً بأهلِه إلى دارِ آل رشد بقرطبة ، فُفُتِّحتْ أبوابُها ونوافِذها ، وأُصْلحِ ماتصدّع مِنها فى الزّلزالِ الكبير ، وشذِّبت حديقتُها ، وأُجرِيتْ مياهُها ، وأضيئَت الأنْوَار .

وتوجه ابن رشد إلى دار الحكمِ (القضاء) فى قُرطبة ، بالقرب من مسجِدِها الجامعِ الكبير . وجلسَ يرقبُه قضاةُ محبُّون له ، وقضاةُ كانوا يطمعُون فى منصبه ، بعد وفاةِ قاضِى القضاة الأسبق « ابنِ مغيث » ، وقضاةُ حاسِدُونَ له لحُظْوته عندَ السلطان ، وقُضاةٌ ناقِمون عليهِ لصلتِه بالفلْسفة ، ولحبّه لكلّ الناس ، وتسامُحِه ، مثْل جده ، مع غيرِ المسلمين .

وقالَ ابنُ رشد ، فيما قالَه ، بإيجازٍ ، مُستنًّا (مشرِّعا) خطة جديدةٍ للقضَاء :

ـــ غايتُنا معاً كقضاة ، هى تحقيقُ العدل ، دونَ تفريق بينَ أهلِ الأدْيان ، أو بينَ أهلِ الغِنى وأهلِ الفقر ، وأهلِ القوةِ وأهلِ الضعف . وسنبدأ بتوحِيد القوانينِ فى الحكمِ بينِ الناس ، فلا يختلِفُ القضاةُ فى أحكامِهم ، من مدينةٍ إلى مدينة ، ولا من حىّ إلى حىّ .

وأحبّ الناسُ فى الأندلس « ابنَ رشد » لعدْله ، حبّهم لجدّه ، ولأبيه من قبْله ، وشعَرُوا بهذا العدلِ لدى كلّ قضاةِ الأندلس فى الأحياءِ والمدُن ، والضواحِى والقرى ، والجبالِ

والوديَان . وهابَ القضاةَ والقضاءَ ، الأمراءُ ، والقُوّادُ ، والأعيانُ والأغنياء .

ووجَد ابنُ رشد وقتاً ليواصلَ عملَه الفكرِى . فعملهُ فى القضَاءِ مقصورٌ على الأقضيةِ التى تُحال إليه من قُضاةِ المُدن والقرى والأحياء ، والأقضيةِ التى يتظلّم فيها الرّعايا من ذِوى السلطان ، والأقْضيةِ التى يعترِض فيها المتخاصِمُون على أحكامِ هؤلاءِ القُضاة ، وكانتْ له ولقُضاته شُرْطتُهم الخاصةُ لتنفيذِ الأحْكام دونَ إبْطاء .

احذر لنفسك

وفوجِىء ابنُ رشد بالسلطانِ يُضِيف إلى منصِبه منصباً آخر ، هو منِصبُ الطبيب الأولُ الخاصّ بالسلطان . وخفّف عنْه مسئولياتُ هذا المنصب ، أنه سيبقَى فى قرطبَة الحبيبة ، لا يُغادِرها إلى مراكش ، إلا بدعْوَةٍ من السلطان ، لعلاجِه ، أو علاجِ أحدِ من أهلِ قصرهِ . وشعرَ ابنُ رشد بالامتنانِ



لأستاذِه « ابن طفيل » الذى يذكرُه أبداً بالخيرِ عندَ السلطان .

ومرّ عامان ، ودُعِى ابنُ رشد لعلاجِ أستاذِه ابنِ طفيل . وقالَ له ابنُ طفيل حين رَآه :

ــ مرحباً بأعزّ الناسِ . ماأحببْت بدعوتِك ، إلا رؤْيتَك ، فالمرضُ عُضَال ، لاعِلاج له إلا براحَةِ الأَبد .

وقالَ له ابنُ طُفَيْل :

ــ احذَر لنفسِك ياأبَا الوليد . أعرِفُ أنك لستَ لذوِى السّلطانِ بندِيم ، ولا بسميرٍ ، وأنك ترفَعُ الكَلَفة فى مخاطبتِهم ، وتخاطبهم كإخوةٍ وأنداد . وفى ذلِك خطر . وأعرف أنكَ صاحبُ عقل ، يغارُ منه قضاةٌ وفُقهاء ، ولا يرضَى عن طلبِه للحق ، والحقّ وحده قضاةٌ وفقهاء . وفى ذلك خطر أيضا.ولذلك أحببتُ أن أراك لتسمع منى ماقلته لك .

وفى الصّباح ، ودّع ابنُ طُفَيْل ، وحيداً ، أنوارَ الدّنيا ، وظلامَها ، و أشياءَها ، ووجُوهَ الأحبابِ والأعداء . وحزِن ابنُ رشْد مع السّلطان لفراق ابنِ طُفيْل . وزادَتِ الأحزانُ

على ابن طفيل فى مرضِ السلطان ، فبقِى ابنُ رشد بجانِبه شُهُورا يُداوِيه ، ولايُفلح فيهِ علاج ، حتّى فارقَ الدنيا ، ودُفِنَ بجانبِ صديقهِ « ابنِ طُفَيْلٍ » ، كما أراد . وبايَع ابنُ رشد ، مع الناس ، السُّلطانَ الجديد : « أبو يوسَف يعقوب » ، وودّعه هو وأخاه « يحيى أبى يعقوب » ، عائداً لمنصِبه فى قرطبة ، كقاض للقضاة .

الكليات والجزئيات

زار « ابن زُهْر » صديقه ابن رشد عالم الطب فى بيتهِ ، وكان ابنُ زهر قد أصبحَ أشْهَر طبيبٍ معالجٍ فى الأندلُس بأسرِها . واتّفَق الصديقانِ الطبيبان ، على تصنِيفِ كتابيْن خطيرَيْن فى الطّب . هما : « الكليّات » ، وحَمَل مسئولية تأليفه ابنُ رشد ، و« الجُزْئيات » وحمل مسئولية تأليفه ابنُ زُهر . واستغرقَ هذا الجهْد من الصديقيْن بضعةَ أعوام . وحينَ التقيا فى حديقةِ قصرِ ابنِ رشد ، كان معَ كلٍّ منهما كتابه الضخْم فى الطبّ . وبدَا أحدُهما للآخرِ سعيداً بما أنجزه



صاحبُه . لكن ابنَ رُشد سرَعَان ماشَردَ مع خواطِره ، حتى سمَعه ابن زهر ، يقول :

ــ وماذَا بعْد ؟

فسألَه ابن زهر عن مقصده . فقال له ابنُ رشد ، وهو يتنهّد :

ــ إنما كنتُ أحدّث نفسِى . ويبدُو لى أنّنى مُقْبلٌ على أمْرٍ عظِيم ، لافِرارَ لى منه ، ورُبما لانَجاة .

وعبثاً حاوَلَ ابنُ زُهر أن يحمِلَ صاحِبَه ، على البَوْح بما يفكِّرُ فيه من الأمرِ العظيمِ ، فقد كانَ ابنُ رشد يخْشَى أن يُثَبِّطَ أحدٌ هِمّته ، وقد بلَغ الثانيةَ والستّين من عمره ، ويعرفُ أنّ الموتَ بالسّيف ، والموتَ على الفِراش ، يستويانِ فى نهايةِ الأمر . وأنّه من الخيرِ له وللدّنيا ، أن يُقدِم على ماعزَم عليْه بشجاعةٍ ، ويحتسِبَ مصيرَه عندَ الله ، والتاريخ .

فى تلك الليلة ، وإذ غادَره ابنُ زُهر ، دخلَ ابنُ رشد مكتبتَه الخاصة ، وجمعَ من رفوفها المنظمة كُتبا عن مسائلِ الشرْعِ الاجتهادية ، وكتباً عن اختلافِ الصحابة والفقهاء ، وكتابين للإمام الغزالى هما : « تهافت الفلاسفة » ، و« فيصل التفرقَة بين الإسلام والزندقة » . كانت الرغبة جارفةً فى عقْل ابنِ رُشد وروحه ، للحِوَارِ مع الفقهاءِ عامةً ، والغزالِى خاصّة ، وهو يعلم أن الغزالى أشعرىّ المذهب ، خطابىّ البراهين حينا ، جدليّها حيناً آخر ، باطنىٌّ فى طلبِ المعرفة ، وأنّه صارَ مقدّساً لدَى العامة ، والمتزمتّين من الفقهاءِ ، ممن يُؤثِرون راحَةَ العَقْل ، بل وربما الجهْلَ والتسليمَ بما يُقال ، كلِّ مايُقال .

بداية المحنة

ومنذُ تِلك الليلة ، ولسنواتٍ عشر تاليةٍ من عمره ، قلّت زياراتُ ابنِ رُشد لأصحابه ، وزياراتُ أصحابِه له ، بعدَ ساعاتِ عمله فى دار الحُكم ، متعلّلا بشتّى الأسْباب ، قابِعاً فى مكتبتِه معَ المراجع والكتب ، والأقْلام والأورَاق ، فى ضوءِ النهار عبرَ نوافِذ الزّجاج ، وفى ضوءِ المِشْكاوات فى ظلامِ الليل . وإذ شعرَ أنه قد أنجزَ مهمتَه ، وتوّجَ عمرَه بخَوْض معركتِه الفكرية فى جبهتيْن : جبهةُ الفلسفةِ من جهة ، وجبهةُ الفقهِ الدّينى من جهةٍ أخرى ، سارعَ بزيارةِ الورّاق الناشِرِ لكتبِه .

ووضعَ ابنُ رشدِ بين يديْه أربعةَ كُتُب دفعةً واحِدة ، أولُها هو « تهافت التهافت » ، وهو فى الفلسفة ، والأخرى هى : « الكشْف عن مناهجِ الأدلّة فى عقائد الملة » ، وهو فى تفسيرِ نصوص قرآنية ، و« فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة (الفلسفة) من الاتصال » ، وهو فى علم الكلام ، و« بداية المجتهد ونهاية المقتِصد » وهو فى الفقه الإسلامى .

ونسخَ النسّاخون كُتبَ ابنِ رشد ، وأقبلَ على قراءتِها طُلاّبُ العِلم فى أرجاءِ المدائِنِ الأندلُسية . وأحدثتْ هذه الكتب غيظاً مكتوماً فى نفوسِ المتزمتين بالأندلس والمغرب ، وباتَ خصومُ ابنُ رشد من الفُقهاء يتحينَون الفُرصَ للإيقاع به عندَ السّلطان ، وباتَ القضاةُ الحاسِدُون له ، والقضاةُ الطامِعون فى منصبه ، يَرْصُدون الوقتَ المناسِبَ لإعلانِ الحرب عليه . وكانتِ الفِتْنة غافية تحتَ الرماد ، تنتظرُ هبّة رِيح .

زيارة عابرة

ووفَدَ السّلطان « أبُو يوسف يعقوب » إلَى قرطبة ، إثْر انتصارِه على جيوشِ ألفُونسو التاسِع فى الشّمال . وقد تردّدتِ الإشَاعاتُ فى قُرطبة ، عن غضَبِ السّلطان على ابنِ رشد ، لأنهُ يرفَع الكلَفة بينهَ وبينه مخاطِبا إيّاه بقولِه : « ياأخِى » ، ولأنهُ يتآمَرُ مع أخيه « يحيى » ، ولم يكُنْ ذلِك صحِيحا ، على السّلطانِ لعزْلِه ، وتوليةِ أخِيه .

وبلغتِ الإشاعاتُ سمْع السّلطان ، لكنهُ لم يبالِ بها ، فقد قرأ كُتُبَ ابنِ رُشد ، ولم يغضِبْه ماكتبه ابنُ رشد ، فهو لم يمسَّ شرْعا ، ولانصًّا ، وإنمّا حاوَرَ اجتهادِاتٍ ، وآراءٍ . وهو على ثِقَة من أخِيه ، وعلى يقينٍ من أنّ ابنَ رُشدٍ لا يلعَبُ لعبة السِّياسَة . وفشِلَ خصُومُ ابنِ رشد فيما أرادُوه . لكنّ السلطانَ كانَ ، فى داخِله ، غيرَ راضٍ عن جُرْأةِ ابنِ رشد ، لاستثارتِه للعَامّة ، والفُقَهاء .

خيانة تلميذ

كان ابنُ رُشد جالساً وحَده ، وقد تباعَدَ عنه ، خوفاً من خُصُومه ، أصدقاءٌ له وطُلاّب ، وبينَهم كان تَلميذٌ له ، عاونَه فى تعيينِه كاتباً بدارِ الحُكم ، ثم قاضياً بينَ القضاةِ ، هو : « أبُو محمد عبدِ الكبير » ، الذى تزعّم جَبْهةَ خُصُومِ ابنِ رشد . وفوجِىءَ ابن رُشد بقدُوم صديقه « ابنِ زهر » عليه ، وجلوسِه إليه ، مُثْنِيا علَى ماكتَبَه ، مهنّئا لهُ بالنّجاة من حَملةِ الإشاعَات . وقال لهُ ابنُ رُشْد :

— مامرّ جوْلة ، والجولَةُ التالية ، لايعلمُ أحدٌ سِوَى الله متى تكُون ؟ أوِ كيفَ تنتهى ؟ لكننّى لستُ بآسَفٍ على شىءٍ ، فما أردْت إلا قَوْل الحق ، لوجْهِ الحقّ ، ومصلحةِ الأمة .

محاكمة ابن رشد

وعادَ السّلطان أبو يوسُف إلى قرطبة مرة أخرى بعد عَامين ، ليُعِدّ العُدّة ، ويجُيّش الجُيوش لمعركَةٍ فاصِلةٍ ، مع ألفونسو التاسع ، فى موقعة « الأرك » . وانتهزَ الفُقهاء فُرصة حاجةِ السلطانِ إليهم للدعوةِ للجِهاد ، وحثِّ الناسِ على الخروجِ للقِتال ، والتبرّع بالأموال ، فجعلُوا بينَهم وبينَ أنفِسهم ثمناً لذلك : « رأس ابن رشد » . ودبّر لهم الخطةُ ، فى تمثيليةٍ مُحكمة ، أمامَ السلطان : « أبو محمد عبد الكبير » ، ولم تكُنْ من مشاهدِها وفصولِها ، كُتُب ابنِ رشد الأربعَةِ الأخِيرة .

قدّمُوا له ، وابنُ رشدِ فى المجلِس حاضِر ، ورقةً من كتابه

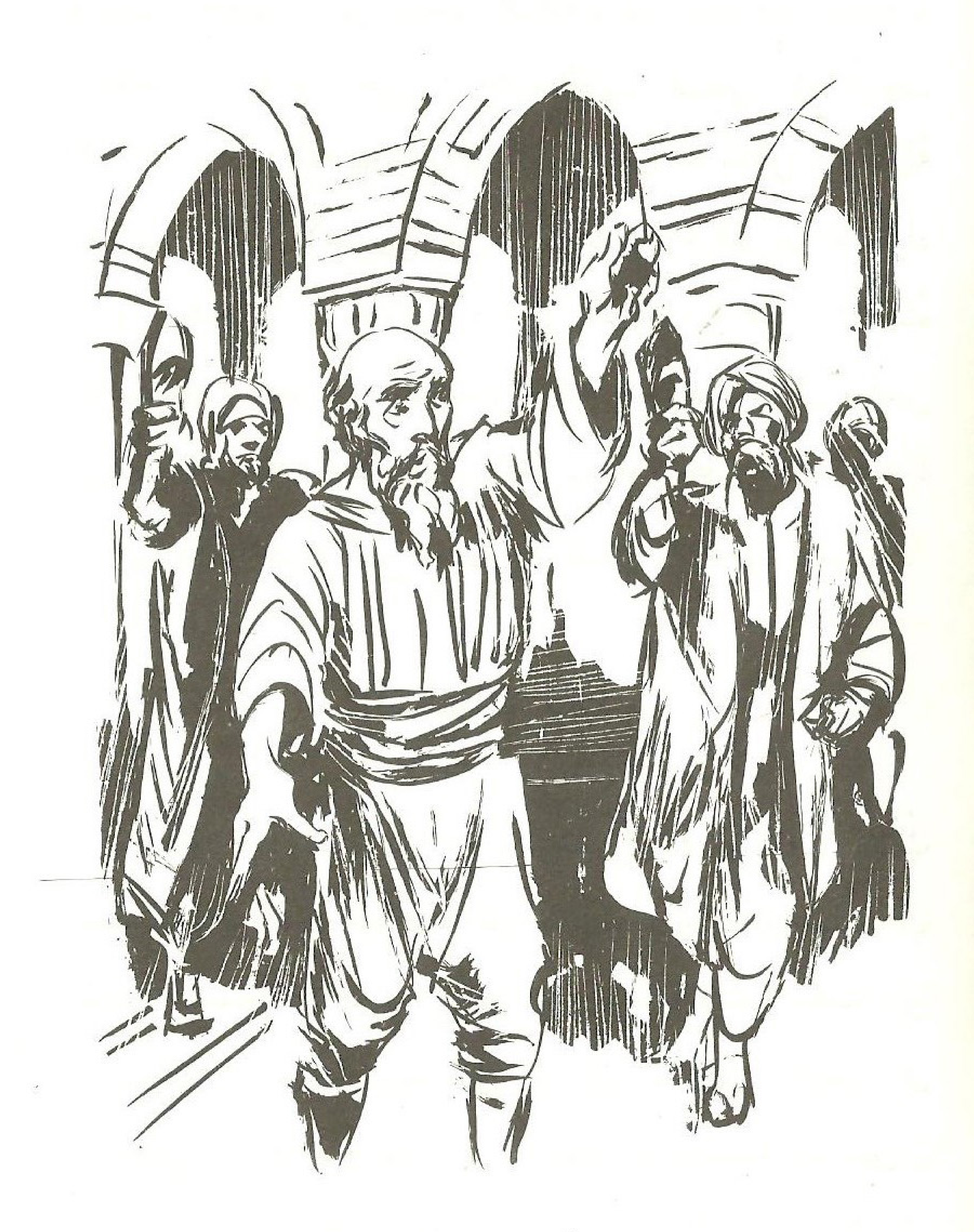
« الحيوان » ، زعمُوا أنهّا بخطّه ، مكتوبٌ فيها عن السّلطان ، أنهُ « ملِك البربر » وقد شهِد عليها مائةُ شاهِد . وأكّد ابنُ رشد أنها ليستْ بخطّه ، وقدم هو ورقةً أخرى بخطّه ، من كِتابه هذا ، مذكور فيها : « مِلك البرّين » .

وقالُوا عنْه إنه قالَ فى كتابِه « الكُلّيات » : « من اشتغَل بعلمِ التشريح ازداد إيماناً بالله » . فلمْ يُنكر ابنُ رشد ماقالُوه ، وأكّدَ ماكتبه ودافعَ عنه ، فمعرِفة تكوينِ الكائنات يَزيدُ الإيمانَ ويُثبّته .

وقالُوا عنه إنه كتبَ فى أحدِ كتبِه ، أنّ « الزهرَة إحدَى الآلهة » ، فقالَ ابنُ رشد : هكَذا كان يعتقِدُ الأولُون ، وأنه لايعتَقد ذلك ، وإنما حكَى معتقدَاتِ السابقِين .

ورأى السلطانُ التمثيليةَ مضحكةَ الاتهامات ، وأدرَك أنهُ بحاجةٍ للجميعِ فى مواجهتِه للفرنجة فى « الأرْك » ، فالمحنَةُ ليستْ محنةَ ابنَ رشد وحدَه ، وإنما هِى أيضا مِحنةُ للسلطان ، فى موقِفٍ عصِيب .

ورفَع السلطانُ الجلَسة ، ليصدَر حكمَه بعدَ حين . وتوقّع



الفُقهاء الإطاحَةَ برأسِ ابنِ رشد ، على ضعْفِ اتهاماتِهم ، وذهَب « ابنُ رشد » وهو ينتظِرُ الحكم ، للصلاة مع ولده فى المسجد الجامع ، وتوضئا ، ودخلا المسجد ، والماء يقطر من وجههِ ، وساعديْه ، وساقيه . ففوجِىءَ بالرعّاع ، من صبْية المتزمتين ، يطاردُونهما بالنّعال ، متهِمين إياهُما بالنّفاقِ والزّنْدقة ، ويطردونهما من المسجِد .

وأدرَك السلطانُ عندَما بلغه الخبر ، حرَج الموقِف ، وقِبل شَفاعةَ أعيانِ قُرطبة فى ابنِ رشد ، فأصدَر حكمَه بنفيه ، هو وعددٌ من أصدقائِه وتلاميذِه ، فى « اليسانه » وكانتْ مدينةً صغيرةً ، أكثر سُكانِها من اليَهود .

الحق لايموت

وشعَر الفقهاءُ والقضاةُ الطامِعون ، بالنّصْر ، وإن لم يُطحْ فيهِ برأسِ ابنِ رشد ، وسانَدوُا السلطانَ فى معركةِ « الأرك » الفاصِلة ، هُزِمتْ فيها جيوشُ « الفونسو » هزيمةً ساحِقة

وحرّك خصومُ ابنُ رشد الوعّاظ فى المساجد ضدّه ، والشّعراء ، والوشّاحين ، والزّجالين ، فَهُجى فى أرجاءِ قُرطبة ، واتهم بأنه يهودِىّ الأصْل ، ومخروفُ العقل ، وتناولهُ الأدبُ الشعبىّ الأندلسِى بقارِصِ الكلام . وكان بَين الشعراء الذين هجوْه الرحّالة : « ابن جُبير » وجمعِ الفقهاءُ مااستطاعُوا جمعَه من كُتُبِ ابن رشد ، وأحرقُوها فى ميادِين قُرطبة واشبيلية ، وقالَ ابنُ رشد لمن معه حين بَلغَه الخَبَر :

— الآن أُدرِك أننى انتصرْتُ للحقّ ، والحقُّ لايموت .

السلطان يعتذر

كانت قد مضت على ابن رشد فى « أليسانه » ثلاثُ سنوات ، وكانتِ العاصفَة قد هدأت ، وآن للسلطانِ أن يَقْلِبَ الصفحةَ الأخيرةِ فى محنةِ ابنِ رشد ، فسعَى بنفسِه إلى « أليسانه » وصِحبَه معَه إلى مرّاكش ، حتى لايبقَى فى الأندَلُس بأسْرِها ، واعتذرَ له ، وأعادَ إليه منصبيْه السابقين .

ورضِىَ ابنُ رشد ، وعدّ ما حدَث له أخفّ مما حدّثته

نفسُه بهِ فى محنتِه . وكان قد بلغَ من العمرِ اثنتينِ وسبعينَ سنة ، وقد اشتدّت عليه أوجَاعُ المفاصل ، من أثرِ حمّى كانَ قد أُصيب بها فى صِباه ، ولم يعالَج منها عِلاجاً كافِيا .

ولم تمضِ عليه ثلاثةُ شهور فى مراكش ، حتى لفِظ أنفاسَه مودّعا الناسَ جميعا ، ليلْقَى وجْه ربه .

وسارَ فى تشييع جنازتِه السلطان ، وعددٌ قليل من الأصدقاء ، و« محيى الدين بن عربى » ، وكأنما كان السلطان على موعِدٍ مع أجله ، بعدَ ابنِ رشد ، مثلما كان أبُوه على موعِدٍ مع ربّه ، بعد ابنِ طفيل ، فقد لفظَ أنفاسَه بعدَ شهرٍ واحد من وفاته .

وسارع الأصدِقاء والتلاميذُ بنقلِ رفاتِ ابنِ رشد من مُراكش ، على ظهرِ بغل ، ليُدفَن ليلاً مع جدّه وأبيه ، فى ثَرى قرطبة ، المدينةِ التى أحبّها ، وكان عقلَها المفكّر ، وقاضِيَها العادل ، وعاشِقَها الأبدى .

وأحْصى الأصدقُاء والتلامِيذُ عددَ الصفحاتِ التى كتبَها ، فكانتْ عشرةَ آلافِ ورقة ، وعددَ الكتبِ والرسائلِ التى ضمّتها فكانتْ ثمانيةً وخمسين كتاباً .

ولِعّدة قرون ، أحدثتْ مؤلفاتُ ابنِ رشد دويّا فى أرجاءِ أوربا ، وعقولِ مفكرِى الأديانِ الثلاثة : « ابنُ ميمون » حَبْرُ اليهود ، و« تُومَا الأكوينى » المفكرُ المسيحى ، و« مارتن لوثَر » داعية البرُوتستانت ، وابنُ تيمية الإمام ، وخُوجة زادَه المؤرخُ التركى ، وآباءُ الكنيسة فى إيطاليا الذين هاجَمُوا الفكرَ الرشدى فى مائتين وتسْعَ عشرة قَضية ، أصدروُا بها قراراً بالإعدام ، على كلّ من يقرأُ ابنَ رشد ، أو يكتبُ عنه . وأُعدِم بسَببِ هذا القرارَ الأحمق ، صفْوَةٌ من المفكرّين الإيطاليين فى رُوما .

لكنّ الحقّ الذى لايمُوت انتصرَ فى النهّاية بعدَ ثلاثةِ قرون ، فتخصّص فى فكرِه مستشرقونُ فى ألمانيا ، والنمسا ، وفرنسا ، وهولندا ، وإيطاليا ، وفلورنسه ، وانجلترا ، وأمريكا ، وتركيا ، وعواصِمِ الوطَنِ العَربى .

وجاءتْ أجمل تحيةٍ لابنِ رشد ، بطبعِ أعمالِه فى البندقية فى القرن السادسِ عشر الميلادى ، فى اثنْى عشَرَ مُجلّداً ، وتدريسِ كتبه فى جامعاتِ إيطاليا ، وفرنسا . وقد كتبَ العقادُ عنه كتابا ، ومحمودُ قاسم كتاباً آخر نالَ عنه درجةَ

الدكتوراة من باريس ، وحقّق وطبع عددا من كتبه نشرتها هيئة الكتاب بالقاهرة .

وفى العصر الحديث ، لا يزالُ الاهتمام بالفكْرِ الرشْدِىّ ، المؤثرِ فى الفلسفةِ الإسلامية ، والأوربية على السواء ، قائما ، فما أكْثَر العواصِم التى تتكوّن فيها ، فى القرنِ العشرين « الجمعيات الرشدية » من أساتذَةِ الجامعاتِ ، والأكاديمياتِ العالمية ، فى عدد من عواصمَ الدنيا .

* * *

وفى العامِ الثامِنِ والتسعين ، وفى اليوم العاشرِ من ديسمبر من هذا القرن العشرين ، ستحلّ الذكرى الثمانمائة لوفاة ابنِ رشدِ . ولسْوفَ يحتِفلُ العالِمُ كلّه بهذهِ الذكرى ، وتنصتُ الدنيا لكلماته القائلة :

« علَى الإنسانِ أن يعمَلَ لإسعادِ المجموع ، فلا يخصُّ شخْصه بالخيرِ والبرّ . علَى المرأةِ أن تقُومَ بخدمةِ المجتمع كما يقومُ الرجل . المصلحةُ العامةُ هى مِقياسُ الأفعالِ من حيثُ الخيرِ والشرّ . الدينُ أحكامُ شرعية وغاياتٌ خلقية ، وليسَ مذاهِبَ نظرية . المجتمعُ الأمثُل هو المجتمعُ الذى لاتفرقَةَ فيهِ

بين : « مالِي .. ومالِك » ، ولاغُربَة فيه لأحدٍ فى أىِّ بلد ، وتتحققُ فيه الحّرياتُ فى النّظام . الطاغيةُ أسيرُ فئةٍ من الناسِ يملؤُهم الجوعُ والخْوف ، وهو نفسُه يعانِى أعظمَ الجوعِ ، فليسَ بمستطاعِه أن يذهَبَ حيثُ شاءَ ، ولا أن ينظرُ حيثُ يريد ، ولايستطيعُ أن يضبِطِ نفسَه فيغْلِبَها . وهو أشَدُّ الناسِ عُبودية ، ولاحيلةَ له لكبْحِ جَحِاحِ رغباتِه ، فهُوَ فى حُزْنٍ وهمٍّ دائمْين . إنّه نفسٌ فقِيرة ، حسودٌ وعنِيف ، ولاصدِيقَ له . ولاشّكَ عندِى فى أنّه بالضرورةِ مضطرِبٌ وتعِيسُ الحظّ » .

* * *

فى عامِ خمسمائةٍ وعشرِين هجرية ، ألِف ومائةٍ وستةٍ وعشرينَ ميلادية ، كانَ ميلاد ابنُ رشد الحفِيدِ ، الفيلسوفُ الطبِيب .

وفى عامِ خمسمائة وخمسةٍ وتسِعين هجرية ، ألِف ومائةٍ وثمانيةٍ وتسعينَ ميلادِية ، كان ودَاعُه للدّنيا .

رقم الايداع بدار الكتب

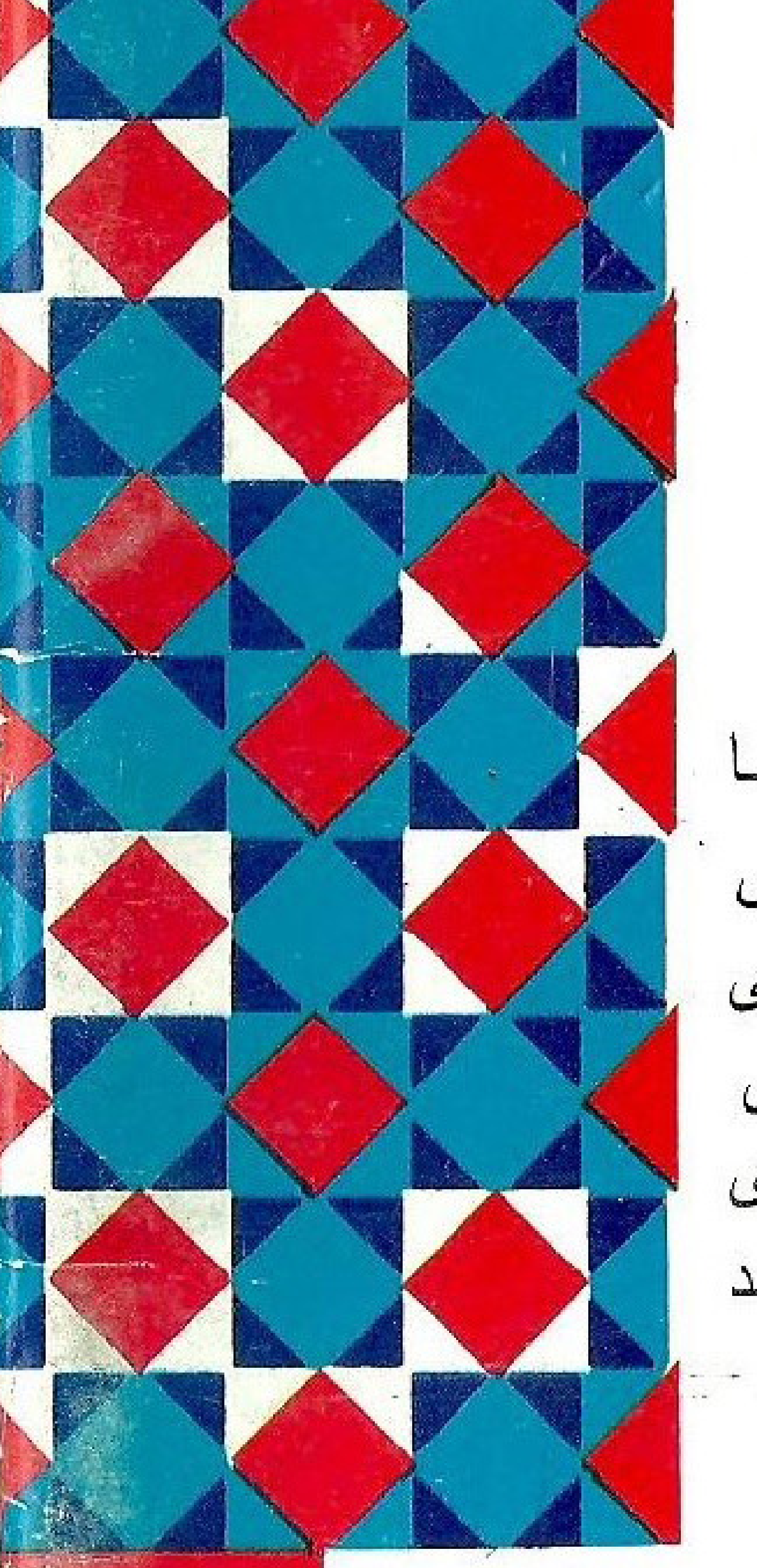
٨٩ / ٤٧١٩

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء
العرب
١٢

ابن رشد

آخر الفلاسفة العرب وأعظمهم أثرًا. عاش بالأندلس فى القرن الثانى عشر الميلادى فقيهًا، وفيلسوفًا، وقاضى قضاة وطبيبا للسلطان، يدعو للعقل والمدنية والمساواة بين الرجال والنساء، ويوفق بين الدين والعلم، وبين الدين والفلسفة ويعرض وينقد أفكار الفلسفة المشرقية والمغربية، ويطورها، ويهز بفكره وكتبه الدنيا بأسرها، وتثير أفكاره موجات من الرضا والغضب فى أوربا طوال عدة قرون، فلم يخف أبدا أعداءه لاستبداد الطغاة والفقهاء. إنها قصة تثير الفخار. يقرؤها الصغار والكبار.



صدر من هذه السلسلة

١ - ابن النفيس	٧ - ابن سينا
٢ - ابن الهيثم	٨ - الفارابى
٣ - البيرونى	٩ - الخوارزمى
٤ - جابر بن حيان	١٠ - الادريسى
٥ - ابن البيطار	١١ - الدميرى
٦ - ابن بطوطة	١٢ - ابن رشد

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر